

الأغالبة (184 هـ - 296 هـ) : سياستهم الخارجية

تأليف : الدكتور محمود اسماعيل
ط 2 مزينة ومنقحة ، مكتبة
وراقة الجامعة ، فاس 1978
233 صفحة .

تقديم : محمد المختار العبيدي

لا مناصّ اليوم لدارس تاريخ دولة الأغالبة من الرجوع إلى كتب الأدب والتاريخ بأنواعها وإلى كتب الطبقات وكتب المسالك والممالك . ذلك أن الحديث عن دولة الأغالبة وإن لم تضمن به علينا الكتب فإنه جاء فيها أوزاعاً .

فلا نجد في مؤلفات القدامى كتاباً اسمه دولة الأغالبة ولا نعرّض عندهم على مؤلف يعطي هذه الدولة حقها من الدراسة والتعمق . ولئن أفرد بعض المؤلفين القدامى فصولاً تختلف طولاً وقصراً لتاريخ هذه الدولة فلم يتناولوا بالتفصيل تاريخها الكامل ولا تعرضوا إلى كل ما يمكن أن يقال عنها من حيث الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد من يوم ظهورها إلى يوم أفولها .

فكان من العسير على الدارس أن يعرف تاريخ الأغالبة ما لم يرجع إلى عددٍ عديد من المؤلفات وما لم يسعَ إلى التأليف بين المعلومات التي يستقيها في شأنها من عشرات الكتب .

وقد تنبّه بعض الباحثين المحدثين لهذه المعضلة فانكبوا على دراسة هذه الفترة من تاريخ إفريقية معتبرين ظهور دولة الأغالبة سنة 184هـ انقلابا سياسيا خطيرا في صلب الدولة الإسلامية فقد « صارت إفريقية في أيام الأغالبة ملكا مستقلا في بيت أثيل يتوارث أفراده الأمر صاغرا عن كابر » (1) وكان استقلال دولة الأغالبة عن الدولة العباسية ثاني استقلال بعد ظهور دولة الأدارسة بالمغرب سنة 172هـ/788م (2) .

ف نجد اليوم كتبا عديدة تتحدث عن تاريخ الدول الإسلامية التي حكمت إفريقية ومن بينها دولة الأغالبة . فإلى جانب كتب حسن حسني عبد الوهاب (3) كتّـب فورنال (4) (H. Fournel) كتابا عن غزو العرب إفريقية خصّ فيه العصر الأغلبي بفصل تحدث فيه عن تاريخ هذه الدولة وفعل بالمثل بيكي (5) Biquet ومارسيي (6) Mercier أمّا روجي إدريس (7) فقد ساهم بدراسة عن تاريخ إفريقية والحياة الثقافية والحياة الإدارية بها في عهدي الدولتين الأغلبية والفاطمية . كما نعثر على مؤلفات ودراسات أخرى

(1) حسن حسني عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي ص 34 مكتبة المنار تونس 1968 .

(2) أنظر المقدمة التي صدر بها علي الشابي وحسن اليا في كتاب أبي العزب : طبقات علماء إفريقية وتونس ، الدار التونسية للنشر تونس 1968 .

(3) أنظر : المجمل

— خلاصة تاريخ تونس ط 4 الدار التونسية للنشر تونس 1968 .

— و ر قات ج 1 ، مكتبة المنار تونس 1965 .

— شهيرات التونسيات ط ح مكتبة المنار 1966 .

(4) — Henri Fournel : Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes et recherches sur les tribus berbères qui ont occupé le Maghreb central. Imprimerie impériale. Paris, 1857.

(5) — F. Biquet : Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane. Paris.

(6) — E. Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête française (1830). vol. 1. Paris, 1888.

(7) — Roger Idris : Contribution à l'histoire de l'Ifrîqiya. Tableau de la vie intellectuelle et administrative à Kairouan sous les Aghlabites et les Fatimites. in Revue des Etudes Islamiques. 1935-1936.

تتفاوت قيمة — ليس المجال لذكرها — تحدث فيها أصحابها عن دولة الأغلبة . ولعل أهم ما أُلّف في هذا الموضوع هو كتاب فندرهيدين (8) Vonderheyden وهو على ما نعلم أول من خصّ هذه الدولة بمؤلف كامل ونشر أيضا محمد الطالببي (9) سنة 1966 — أي بعد أربعين سنة من ظهور كتاب فندرهيدين كتابا عن تاريخ الأغلبة السياسي .

وينضاف اليوم إلى هذين الكتابين الكتاب الذي تقدمه وهو للدكتور محمود اسماعيل « مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب جامعة عين شمس » (انظر ص 5) وقد تقدّم بهذا الكتاب سنة 1967 لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي و« نال به الدرجة بامتياز » (ص 6) .

أول ما يسترعي الانتباه عند قراءة هذا الكتاب كثرة المصادر والمراجع التي اعتمدها المؤلف في بحثه فقد رجع إلى 161 مرجعا ، مكتوبة بلغات مختلفة حرص المؤلف على ترقيمها ممّا ينمّ عن سعة اطلاع وجدية في العمل وعناء في البحث .

وثاني أمر يسترعي الانتباه هو اقتناع المؤلف بأن تاريخ الأغلبة السياسي و« الجوانب الحضارية من العلاقات الأغلبية لم يعرض لها أحد قط ولم يكتب فيها إلا ما ورد في تاريخ التجارة والثقافة والفن بعامة » (ص 10) ويرى الدكتور محمود اسماعيل أن دراسات المستشرقين « غير متكاملة » وحتى فندرهيدين « لم يعرض إلا للجانب السياسي من هذه العلاقات ... في إيجاز شديد » (ص 10) .

وثالث أمر يسترعي الانتباه هو سكوت المؤلف — رغم كثرة مصادره ومراجعته وسعة اطلاعه — عن كتاب محمد الطالببي وقد سبق أن ذكرنا أنه

— Vonderheyden M. : La berberie orientale sous la dynastie des Banou 8) l'Arlab. Paris, 1927.

M. Talbi : L'Emirat Aghlabide, histoire politique. Maisonneuve. (9) Paris, 1966.

طبع سنة 1966 أي قبل سنة كاملة من مناقشه أطروحة الدكتور محمود إسماعيل (المناقشة لا طبع الكتاب) . ولم نُسَيءْ بالدكتور إسماعيل ظناً وقلنا لعله لم يهتد إلى هذا الكتاب ولكن هذا لم يقف له عُدراً إذ الكتاب الذي بين أيدينا هو في طبعته الثانية فقد طبع بفاس سنة 1978 وهي « طبعة مزيدة ومنقحة » كما هو مذكور بالصفحة الأولى من الكتاب .

أعدَّ الدكتور إسماعيل مقدّمة ثانية للطبعة الثانية يقول فيها بالحرف الواحد : « قد توفر لي الوقوف على مادة جديدة وأنا بصدد الاعداد لدرجة الدكتوراه عن تاريخ الخوارج في المغرب أفدتُ منها في تعديل بعض الآراء وخاصة المتعلقة بعلاقة الأغالبة مع الدول المغربية المعاصرة لها » (أنظر ص 7 من كتاب الأغالبة) .

فهذا الكلام يدلّ على أن المؤلف قد أعاد النظر في بحثه هنا ولعله عثر على مؤلفات أخرى اهتم فيها أصحابها بتاريخ الأغالبة . لكن الدكتور إسماعيل أثر السكوت مرة ثانية عن كتاب الطالبسي وهو في نظرنا من أهم ما كتب عن تاريخ الأغالبة السياسي . فلم يكتفِ المؤلف عن هذا الكتاب ؟ أراجع ذلك إلى نقص في الاطلاع — وهو ما لا توجي به قائمة المصادر والمراجع الطويلة المعتمدة — أم أن ذلك راجع إلى تجاهل بعض المؤلفات والمؤلفين أم مردّ ذلك إلى شيء آخر ؟ فمما يبعث على الاستغراب هو أن التخطيط الذي اتبعه الدكتور محمود إسماعيل في بحثه هو نفسه الذي اتبعه — من قبل — الدكتور محمد الطالبسي .

فقد أفرد محمود إسماعيل الباب الأول من كتابه لدراسة :

- قيام الدولة الأغلبية والظروف التي نشأت فيها — ص ص 15—44 .
- وخصّص الباب الثاني لدراسة العلاقات مع المشرق الإسلامي وتتبع علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية ثم العلاقات بينها وبين مصر — ص ص 45—96 .

— وخصّص الباب الثالث للصلات بينها وبين دول المغرب والأندلس
ص ص 97—145 .

— وخصّص الباب الرابع لعلاقات الأغلبة بالعالم المسيحي — ص ص
147—190 .

— وخصّص الباب الخامس لسقوط دولة الأغلبة — ص ص 191—208 .

فهذه الأبواب الخمسة نجدها جميعا مع فارق في التحليل في كتاب
الدكتور الطالبي المذكور آنفا (10) .

إلى جانب ذلك فالكثير من المواقف والأحكام في الكتاين تشابه تشابها
يبلغ أحيانا حدّ التطابق (11) .

(10) نجد في كتاب الطالبي ما يلي :

Chapitre premier :

L'Ifrqiya et l'Orient avant l'avènement des Aghlabides. pp. 17-44

Chapitre II :

La fondation de l'Emirat Aghlabide. pp. 45-129.

Chapitre VI :

Politique extérieure. pp. 323-536.

A. Kairouan et Bagdâd.

B. Les Aghlabides et leurs voisins musulmans.

Les Aghlabides et l'Egypte.

Les Aghlabides et le Maghreb Central.

Les Aghlabides et les Idrissides.

Kairouan et Cordoue.

C. Les Aghlabides et le monde chrétien.

Chapitre VII :

La chute des Aghlabides. pp. 537-688.

I. La faillite du redressement.

II. L'organisation de l'insurrection.

III. Le triomphe des chiites.

مع العلم أن أشباه العناوين هذه موجودة هي نفسها في كتاب الدكتور محمود إسماعيل .

(11) نذكر على سبيل المثال لا الحصر فقرات من كتاب الدكتور إسماعيل وأخرى من كتاب
الدكتور الطالبي والتشابه بينها واضح بين :

الأغلبة والإدارة :

« اتخذت العلاقات الأغلبية الإدارية طابعا عدائيا أيضا ، فلم يحافظ الأغلبة من جانبهم على
علاقة حسن الجوار مع جيرانهم العلويين وبادموهم بالعدوان » (الأغلبة ص 112) .

ونجد في كتاب الطالبي :

Les Aghlabides et les Idrissides :

« Les relations des Aghlabides avec les Idrissides furent plus troublées. La politique aghlabide envers ces derniers s'inscrit en effet dans le cadre plus général de la politique abasside dont elle n'est qu'un reflet envers les 'Alides » (L'Emirat Aghlabide. p. 362).

« وقد ازداد خطر الإدارة بعد فتحهم تلمسان » وهي باب إفريقية ، ومن ملك الباب أوشك أن يدخل الدار » فقد استولى إدريس على موارد هائلة وأصبح لديه من الرجال ما يمكنه من تحقيق أغراضه ليصبح بحق « الإمام الأكبر وصاحب المغرب » (الأغلبية ص 112).

« La prise de Tlemcen particulièrement semble avoir eu un grand retentissement en Orient. On prête cette parole à al-Rasid : « Tlemcen est la porte de l'Ifriqiya et quiconque tient la porte risque de forcer l'entrée de la maison ». Or, des nouvelles alarmantes parvenaient au Califat faisant état des succès d'Idris 1er au Maroc, de la soumission de toutes les tribus à son autorité et de son intention d'envahir l'Ifriqiya » (L'Emirat Aghlabide. p. 369).

« وتجمع المصادر على اغتيال إبراهيم بن الأغلب لراشد بعد ولايته إفريقية ولكنها تختلف في تحديد السنة التي قتل راشد فيها ، لكننا نستطيع ترجيح وقوع هذا الحادث في عام 183 أو 184هـ قبل أن تقول إمارة إفريقية إلى إبراهيم بن الأغلب ، فقد ورد في شعر منسوب لإبراهيم ابن الأغلب ضمن كتاب أرسله إلى الرشيد عقب نجاحه في اغتيال مولى الإدارة قوله :

ألم ترني أرديت بالكيد راشدا
4 أبيات [(الأغلبية ص ص 115-116)

« A en croire Ibrahim b. al Aghlab cependant dans la mesure où les vers qu'on lui attribue sont comme il est probable authentiques, Ràsid aurait laissé la vie en plein combat. Voici le rapport versifié que le gouverneur du Zàb triomphant adressa, selon Ibn al Abbàr et Ibn abi Zar' au calife : ... (L'Emirat. p. 373).

كتب إبراهيم بن الأغلب ذلك الشعر إلى الرشيد عندما كان يلي الزاب إبان ولاية محمد بن مقاتل العكي لإفريقية . وكان ذلك عندما ادعى العكي نسبة فضل اغتيال راشد إليه . ولما تأكد الرشيد من افتراءات العكي وصدق إبراهيم عن طريق صاحب البريد ، أمر بعزله وإسناد الإمارة إلى ابن الأغلب وقد حدث ذلك سنة 184هـ مما يرجح أن اغتيال إبراهيم لراشد حدث قبل توليه الإمارة » (الأغلبية ص 116)

« Commentant ce texte, Ibn al-abbar nous explique qu'Ibrâhîm ibn al aglab après avoir fait tuer Ràsid par ses amis convenablement soudoyés envoya sa tête à Muhammad b. Muqatil al Akki pour qu'il la transmitt à al-Rasid. Celui-ci s'attribua la gloire de l'exploit ce qui amena le gouverneur du Zàb à mettre les choses au point. Il en découle naturellement que Ràsid trouva la mort antérieurement à gumâda II 184/juillet 800 ». (L'Emirat. p. 374).

« وكان من نتيجة استمالة إبراهيم بن الأغلب للبهلول أن خشي إدريس الثاني على دولته ، فبعث إلى ابن الأغلب يستعطفه ويذكره بقرابته للرسول ويرجوه الكف عن تدبير المكائد ضده ويذكره المؤرخون أن إبراهيم كف عنه » (الأغلبية ص 119)

لا نريد بهذا أن نتهم الدكتور محمود اسماعيل بشيء ولا أن نبخسه حقه فقد نوّهنا في مستهلّ هذا التقديم بقيمة كتابه وأكدنا على أنه بحث قيم مركّز ولكن ليس من الطبيعي ولا من الأمانة العلمية في شيء أن يتجاهل الدكتور إسماعيل كتاب الطالبّي وقد نشر بباريس لا بتونس ويبدو أن الدكتور مطلع على كل ما يصدر بفرنسا وغيرها من بلاد العالم سواء كتب بالفرنسية أو الانجليزية (انظر قائمة مصادره ومراجعته) : وإنا نستغرب من المؤلف قوله : « إن الجوانب الحضارية من العلاقات الأغلبية لم يعرض لها أحد قط ... وإن فندرهيدن لم يعرض إلا للجانب السياسي من هذه العلاقات في إيجاز شديد » (ص 10) فهذا ادعاء باطل وافتراء على الناس ؛ فقد سبقه إلى هذا الميدان كل من فندرهيدن والطالبّي وحتى كلام الدكتور إسماعيل عن فندرهيدن لا يستقيم إذ هو يكاد يستشهد بأقواله في جميع صفحات كتابه . (نذكر بعض الصفحات التي فيها ذكر لفندرهيدن ونكتفي بذكر صفحات من أول الكتاب ومن منتصفه ونهايته : 17 — 21 — 22 — 23 — 24 — 31 — 33 — 89 — 90 — 91 — 99 — 102 — 105 — 195 — 196 — 197 — 198 — 199 — 200 — 201 — 202 — 204 — 205 — 206 — 207) .

« Après la défection de Buhlul et l'isolement que valut cette défection à Idriss II, ce dernier note Ibn al Atir « écrit à Ibrahim faisant appel à sa bienveillance, le suppliant de le laisser en paix et lui rappelant les liens de parenté qui le liaient au prophète, que la bénédiction et le salut de Dieu soient sur lui ! Ibrahim cessa ses intrigues » (L'Emirat. p. 375).

الأغلبة والأمويون بالأندلس :
« تأثرت العلاقات بين الأغلبة والأمويين بالأندلس بطبيعة نشأة كل من الدولتين ثم بالعداء التقليدي بين العباسيين والأمويين ومن ثم كانت هذه العلاقات عموماً تتسم بروح العداء » (الأغلبة ص 124)

Kairouan et Cordone :

« Les relations de Kairouan avec Cordoue... s'inspirèrent des mêmes principes généraux qui avaient toujours orienté la politique extérieure aghlabide, c'est-à-dire dans le cas particulier de l'Espagne musulmane qu'elles s'inscrivent dans le cadre du conflit latent qui opposait les Abbasides aux Omeyyades » (L'Emirat Aghlabide. p. 378).

هذه ملاحظات عابرة سجلناها في شأن هذا الكتاب وقد استوقفتنا ونحن نقرأ مقدمة الطبعة الثانية عبارة المؤلف : « وأنوه بأن الطبعة الثانية خلو من كثير من الأخطاء اللغوية والمطبعية التي زخرت بها الطبعة الأولى للكتاب (ص 8) فهذا اعتراف منه صريح بأن طبعة كتابه الأولى كانت مليئة بالأخطاء وهذا راجع حتما إلى قلة تراث المؤلف وكثرة تسرعه في نشر كتابه . وها نحن نساهم بدورنا — كقراء لا غير — في إبراز بعض الأخطاء اللغوية التي ادّعى المؤلف أن كتابه خلو منها لعله أن يتداركها في طبعة ثالثة (لم نعثر في مكتبتنا على طبعة الكتاب الأولى) :

- ص 9 : فدلوني الخوارج اتسمتا بالطابع المحلي .
- ص 17 : على كل حال انسلخ المغربين الأوسط والأقصى ...
- ص 21 : وجدير بالذكر أن هذا الكساد الذي ساد إفريقية كان يقابله رخاء عظيم حققته دول البربر المستقلة وخاصة الدولتين المدياربية والرستمية .
- ص 34 : وقد بلغ (أي إبراهيم بن الأغلب) من العمر ست وخمسين عاماً .
- ص 34 : ولم يجد إبراهيم خلال الاثنتي عشر سنة التي قضاه في الإمارة ...
- ص 40 : وكان يُؤثّر عنه (زيادة الله) تولية قاضيين في آن واحد هما أبي محرز وأسد بن الفرات .
- ص 51 : ومع ذلك ففي كلتيّ الحاليتين .
- ص 54 : وأرفق بالرسالة كيساً به ألفي دينار إدرسية .
- ص 55 : فالخليفة المعتصم قلّد الأمير أبي عقاب عام 226هـ .
- ص 63 : وأصبحت القوى الثلاثة .
- ص 90 : ولا غرو فقد ارتحل فقهاء إفريقية وعلمائها .

ص 110 : فلما كان اليوم التالي وصلت جيوش نفوسه وعدتها اثني عشر ألفاً .

ص 110 : فدارت معركة رهيبة راح ضحيتها اثني عشر .

ص 137 : كما شغف الإمام أبي حاتم يوسف بالعلوم والفنون .

ص 147 : ولم يدخر ولاة إفريقية الأمويين وسعاً ...

ص 160 : الأمر الذي دفع الأمير الأغلبى أبو الغرائق ...

ص 162 : ومعه مائة وعشرون مزراباً وأربعين حربى .

ص 165 : ولاشك في أن الأغالبة أدخلوا أنواع جديدة من الزراعات .

ص 170 : يؤكد ذلك أن المندوب الأغلبى كان برفقته مبعوثاً .

ص 177 : فقد أفلح أسطول أغلبى في ثلاثة وسبعين سفينة .

ص 181 : ودفع إتاوة قدرها خمسة وعشرين ألف قطعة فضية .

ص 188 : وشاركهم تجار المدن الإيطالية والتجار اليهود المعروفين بالرهانية .

ص 193 : وضرب جماعة منهم كابن معتب والدمنى والطار وابن المدائنى

وأبا القاسم .

ص 199 : سارع إبراهيم بن أحمد بارسال ابنه الاحول على رأس جيش عدته اثني عشر ألفاً .

وخلاصة القول إن هذا الكتاب لا يخلو من قيمة - رغم الهنات الموجودة فيه وقد سعينا إلى تنبيه القارئ إليها - ذلك أن المكتبة العربية خالية أو تكاد من مراجع عن أول دولة حكمت إفريقية وهي دولة الأغالبة ولعل الحاجة ملحة اليوم إلى مؤلفات تضاهاي مؤلفي فنديرهيدن والطالبي قيمة واستقصاء وعمقا .